الفصل الأول

طبيعة القيم الأخلاقية

الفصل الأول

طبيعة القيم الأخلاقية

أولاً: ماهية فلسفة الأخلاق.

إذا كانت فلسفة برتراند رسل تقبع فى إطار النزعة الواقعية الجديدة، فهل صاغ نظريته الأخلاقية Ethical Theory وكذلك المشكلة الخلقية Moral من خلال فلسفته الواقعية؟ أم اتخذ لفلسفته الأخلاقية منحًا آخر فى التفكير؟ وما هى مشكلة الأخلاق بالتحديد عنده؟ وكيف خرج من خلال فلسفته المتغيره بنظرية فى فلسفة الأخلاق والمشكلة الخلقية؟

وهى تساؤلات تستحق دراسات منفصلة فى ذاتها. ولكنها يمكن أن تثار هنا فقط داخل السياق العام لهذا البحث.

إن تطور الفكر الإنسانى بصفة عامة، والفكر الفلسفى بصفة خاصة يقرر أن بديهية الدعوة الأخلاقية قديمة قدم المجتمعات البشرية، فما اجتمعت طائفة من الناس فى أى مكان على هذه البسيطة، وفى أى عصر من عصور التاريخ، إلا وقد نجم عن هذا التجمع قواعد للتمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، والكمال والنقصان، وغير ذلك من المعايير التى يلتزم بها الناس فى سلوكهم ليعيشوا حياة سعيدة ويحققوا أكبر قدر من الطمأنينة والرضى والكمال[1]. أضف إلى ذلك أن الفلسفة المعاصرة ذاتها ترى أن الحياةَ الأخلاقية حياةٌ إنسانيةٌ، أى أنها حياة كائن يرتبط فى جوهره بالمجتمع، كما أن حياةَ العزلةِ بعيدةَ عن الأخلاق بعد الحياة التى يذوب فيها الفرد والمجتمع تمامًا[2].

(1) محمد مهران رشوان: تطور الفكر الأخلاقى فى الفلسفة الغربية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص7.

(2) اميل برييه: اتجاهات الفلسفة المعاصرة، ترجمة/ محمود قاسم، مراجعة/ محمد القصاص، منشورات الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، 1956م، ص ص80، 81.

كما أنه ليس فى استطاعة الإنسان أن يحبس نفسه فى قمقم، فإن قطب «الأنا» لا يستطيع أن يعيش إلا فى علاقته بقطب «الغير». حقًا إن المرء يولد بمفرده، ويموت بمفرده، ولكنه لا يحيا إلا مع الآخرين وبالآخرين وللآخرين[1].

سواءً كان الآخر هو من أحبه أو أتصارع معه، فلا مفر من العلاقة إيجابية كانت أم سلبية.

فالأخلاق فى نظر أصحاب الاجتماع الخلقى، لا تبدأ إلا من حيث تبدأ الحياة الجماعية، فهنالك فقط يمكن أن تكتسب النزاهة والإخلاص معنىً ودلالةً، فليس الإنسان كائنًا أخلاقيًا إلا لأنه يعيش فى جماعة، حتى إننا لو نجحنا فى القضاء على الحياة الاجتماعية، لتوصلنا من هذا الطريق نفسه إلى القضاء على الحياة الأخلاقية لأنها عندئذ سوف تصبح غير ذات موضوع[2].

إن ما سبق تقديمه هو ما أكد عليه برتراند رسل، حيث يقول «إن هذا الازدواج فى الأخلاق بين أخلاق شخصية وأخرى اجتماعية Personal & social Morality أمر يجب أن يؤخذ فى الاعتبار فى أية نظرية أخلاقية مناسبة، فبدون الأخلاق الاجتماعية تفنى المجتمعات، وبدون الأخلاق الشخصية يكون وجود هذه المجتمعات عديم القيمة. ومن ثم كانت الفضيلتان الشخصية والاجتماعية ضرورتين لأى عالم فاضل»[3].

ولقد أكد الدكتور زكى نجيب محمود فى تحليله لفلسفة برتراند رسل، على حقيقة مهمة وهى «لو كان الفرد من الإنسان يعيش فى كون وحده كما هى الحال مع الله، لما كان هناك إشكال فى التربية أو الأخلاق بالنسبة لذلك الفرد الواحد. فتربيته هى أن يبلغ بجوانبه الثلاثة من عقل، ووجدان، وإرادة حدودها القصوى، ولا تلزمه «أخلاق» لأنه ليس إلى جانبه سواه تتطلب معاملته تحديدًا لسلوكه، لكن الفرد من الناس لا يعيش وحده، وإذن فلا مناص من تحديد إرادته بالتربية وبالأخلاق حتى لا يطغى بها على سواه، بعبارة أخرى، يمكن للفرد من الناس أن يتشبه بالله فى مداركه العقلية، وفى عواطفه الوجدانية، لكنه يستحيل عليه أن يتشبه

(1) زكريا إبراهيم: مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت، ص160.
(2) المرجع السابق: ص165.
(3) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، ترجمة: عبد الكريم أحمد، مراجعة: حسن محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1960م، ص20.

به فى ممارسة قوة إرادته»[1]. وذلك لاختلاف الطبيعة الإنسانية عن الطبيعة الإلهية، وحدود الأولى، ولا محدودية الثانية، فالإرادة الإنسانية يعتريها النقص وعدم الكمال، بينما الإرادة الإلهية تمتلك الكمال المطلق.

فإذا كانت العلاقةُ وطيدَة الصلةِ بين الأخلاق والحياة الاجتماعية، فإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على قوة الجماعة فى تحديد السلوك الفردى على أنه منبع الفلسفة الأخلاقية، وذلك لكون التجربة الأخلاقية تتوجه دائمًا إلى المشاركة فيما يتجاوز الشخص، لأن معطاها الأكثر مباشرة هو المشاركة فى الحرية الخلاقة التى تضم فى داخلها كل الأشخاص[2].

وقد صرح رسل فى «موجز الفلسفة» An Outline of Philosophy بأن فلسفة الأخلاق Ethics عبارة عن مجموعة من المبادئ العامة تساعد فى تحديد القواعد التى يسير بمقتضاها السلوك البشرى[3] Conduct Human. فليس من مهمة فلسفة الأخلاق أن تقول للمرء كيف ينبغى أن يسلك فى ظروف معينة Specitic Circumstances لأن هذه مهمة الإرشاد الدينى Cassuistry، بل عمل الأخلاق هو تعقب القواعد الخلقية إلى أصولها التى تفرعت عنها[4].

ودائمًا ما ينظر إلى فلسفة الأخلاق - على أنها العلم المعيارى - Normative Science الذى يهدف إلى تكوين المبادىء والقواعد الأخلاقية التى لديها الشرعية الموضوعية، والموضوعية المنشودة للقيم الأخلاقية هنا - هو أن تتضمن - هذه القيم وجودًا واقعيًا وحقيقيًا بعيدًا عن أية إشارة للعقل البشرى- بمعنى - أن لا نخضع المفاهيم الأخلاقية من قبيل «الخير» و«السىء»، و«الصواب» و«الخطأ» للأهواء البشرية والميول الذاتية، أو ما يعتقده عامة البشر عن معنى «الخير» و«السىء»، فالحكم الأخلاقى - كى يكون موضوعيًا- يجب أن يكون مقبولاً من معظم البشر وليس قبوله لمجرد الأفراد[5].

(1) زكى نجيب محمود: برتراند رسل، سلسلة نوابغ الفكر الغربى، دار المعارف، القاهرة، 1956م، ص118.

(2) عبد الرحمن بدوى: الأخلاق النظرية، وكالة المطبوعات، الطبعة الأولى، الكويت، 1975م، ص ص-20 21.

(3) Bertrand Russell: An Outline of Philosophy, The World Publishing company, New York , 1972, p.233.

(4) زكى نجيب محمود: برتراند رسل، مرجع سابق، ص118.

(5) Edward Westermarck: Ethical Relativity, Kegan Paul, Trench, Trubner & Co, LTD, London, 1932, p.3.

وعلى ذلك، عندما كان الكثيرون من الباحثين يخلطون خلطًا ظاهرًا بين مهمة الوعظ الديني (الاجتهاد الخلقي) ألا وهو الإرشاد الذى هو وظيفة دينية فى حد ذاته، وبين فلسفة الأخلاق بمعناها الفلسفى الذى قدمه برتراند رسل، لذا نصَّب رسل نفسه لبيان وتوضيح مدى اللبس والغموض الذى يكتنف هذا الموضوع، فضرب لنا أمثلة تبين الفرق بين الوعظ والأخلاق.

ولنضرب هذا المثل: فى أى الظروف يحق لنا الكذب؟ هذا سؤال لو ألقيته على كثيرين لأجابوا فى غير روية: إن الكذب لا يجوز كائنة ما كانت الظروف، لكنها إجابة فجة لا تحتمل الدفاع الجاد، فكلنا يسلم بأن الكذب أمر محتوم إذا قابلت سفّاحًا مجرمًا يعدو فى جنون ليلحق برجل معين يريد اغتياله، ثم سألك السفّاح المجرم: هل رأيت هذا الرجل؟ هذا إلى أن الكذب أمر مقبول فى فن الحرب، وقد يكذب القساوسة احتفاظًا بسر من اعترف لهم بسره، وللطبيب أن يكذب ليطمئن المريض، فهذه كلها مسائل ترجع إلى الوعظ والفتوى، ولا تدخل فى علم الأخلاق من حيث هو جزء من الفلسفة[1]. من هنا نشأ الاختلاف بين فلسفة الأخلاق كنظرية معرفية وبين الوعظ والإرشاد الذى يستند فى معظم أموره إلى رجال الدين.

ولا يزال رسل يؤكد على مسائل الوعظ والإرشاد، فتراه يقول فى كتابه «أفضل ما كتب برتراند رسل» Bertrand Russell`s Best «إذا امتنعت طوال حياتك عن القتل، والسرقة، والزنا، وشهادة الزور، والكفر، وعدم احترام الوالدين، والكنيسة، والملك. فأنت تستحق الإعجاب تقليديًا حتى لو لم تكن قد قمت بأى عمل كريم أو نافع على الإطلاق، فهذه الفكرة غير المناسبة للفضيلة هى نتاج أخلاقيات التحريم»[2]. وهنا يستشهد رسل بأمثلة توضيحية من الديانات فيرى «أن العقيدة الأساسية للإسلام هى أن كل الذنوب يمكن غفرانها شريطة أن يظهر التائب قدرًا كافيًا من المذلة، ورغم ذلك فإن هناك استثناءً غريبًا، فالذنب الذى لا يُغتفر هو الشك فى وحدانية الله وكرمه وعلمه، فلسبب غير واضح فإن هذا الذنب الخاص لا يمكن

(1) برتراند رسل: الفلسفة بنظرة علمية، سلسلة الفكر المعاصر، تلخيص وتقديم/ زكى نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1960م، ص187.

(2) برتراند رسل: مختارات من أفضل ما كتب، تحرير: روبرت اجنر، ترجمة: محمد قدرى عماره، مراجعة: إلهامي جلال عماره، عدد 641، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى القاهرة، 2004م، ص124.

احتماله ولا يمكن غفرانه أبدا». أما فى المسيحية، فقد «قال المسيح: «أحبوا جيرانكم كحبكم لأنفسكم» وعندما سئل: «من هم جيراننا؟» استمر فى الحديث عن مثال السامرى الطيب، فإذا رغبت فى فهم هذا المثال كما فهمه سامعوه، فلك أن تجعل الألمانى أو اليابانى يحلُّ محلَّ السامرى. أخشى أن الكثيرين من المسيحيين الآن سيستنكرون هذا الإحلال، لأنه سوف يضطرهم إلى إدراك كم بعدوا عن تعاليم مؤسس ديانتهم»[1].

لذلك كانت الحياة الطيبة the Good life عند رسل هى الحياة التى يلهمها الحب وتقودها المعرفة[2].

مما سبق يتضح أن علم الأخلاق Ethics علم قائم بذاته، و إن كان يمثل جزءًا من الفلسفة يدخل ضمن مبحث الأكسيولوجيا(*) Axiology إلا أنه يختلف تمامًا عن وظيفة الوعظ الدينى فلا يجوز الخلط بينهم، فلكل واحدٍ عالمه الخاص، وهنا نجد برتراند رسل يحاول أن يتخلى عن كون الأخلاق جزءًا من الفلسفة، مع أنه يعلن فى نفس الموضع أن الفلسفة تُعدُّ الأخلاقَ جزءًا منها(**)، فيقول «أرى أن تخرج الأخلاق من مجال الفلسفة(***)، ولكن

(1) المصدر السابق: ص125.

(2) W. T. Jones , Robert J. Fogelin: A History of Western Philosophy, The Twentieth Century to Quine and Derrida, Christopher P. Klein, London, 1997, p.210.

(*) يمكن القول بأن نظرية القيمة أو الأكسيولوجيا قد بدأت باعتبارها جزءًا من فلسفة الأخلاق، ومن ثم فإن هدف هذه الكلمة «اكسيولوجى» أنها أداة لتمييز بحث على قدر عظيم من الأهمية والفائدة، وهو بحث كان من الممكن ألا يكتشف لو أن حدوده ومعالمه التى تربطه بغيره من الدراسات الفلسفية التى ظلت مختلطة ومبهمة، كما أن نظرية القيمة ترجمة للكلمة الإنجليزية Axiology وهى تعنى دراسة الأشياء ذات القيمة النهائية، وبالمثل دراسة الأشياء التى ليست لها هذه القيمة، بالإضافة إلى تحليل تصورات القيمة ومقابلاتها. وكان أول من استخدمها فى الفلسفة المعاصرة هو «بول لابى» Paul Lapie فى كتابه «منطق الإرادة» عام 1902م، ثم الفيلسوف الألمانى إدوارد فون هارتمان Edward Von Hartman.
انظر- محمد مدين: الأكسيولوجيا فى الفكر الفلسفى المعاصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2002م، ص5.

(**) «Ethics is traditionally a department of philosophy».
Look - Bart Schultz Source: Bertrand Russell in Ethics and Politics, Ethics, Vol. 102, No. 3, The University of Chicago Press (Apr., 1992), pp. 594-634.

(***) مما لا شك فيه أن الذى جعل برتراند رسل يحاول أن يفصل بين كل من الفلسفة والأخلاق، هو أن رسل كان يرى أن مهمة الفلسفة لا تقوم فى تحصيل مجموع من الحقائق، =مثل سائر العلوم، بل فى البحث فيما=

إذا أردت إقامة الحجة على صدق هذه القضية، تطلب ذلك بحثا يوازى بحث موضوع الأخلاق ذاتها»[1].

إن كون الأخلاق جزءًا عظيمَ الشأن فى الفكر الفلسفى، قد نادى به أرسطو قديمًا فى الفلسفة اليونانية، فلولا هذا التقسيم التقليدى للأخلاق، حيث اعتبرت منذ أن صنف أرسطو أقسام الفلسفة إلى نظرية وعملية، ووضع الأخلاق ضمن الجانب العملى، اعتبرت قسمًا من أقسام الفلسفة ومبحثًا من مباحثها، لولا هذا التقليد ما تناولها رسل على هذا النحو، إذ أن رسل وإن كان يدرس الأخلاق داخل نطاق الفلسفة إلا أنه يعلن أن الأخلاق لا ينبغى أن تظل محصورة فى نطاق الفلسفة فقط، لأن لها روافد متعددة مثل الدين والعرف والتقاليد. أى المنابع الداخلية والخارجية لفلسفة الأخلاق.

ولعل السبب فى موقف رسل من عدم رضائه عن جعل الأخلاق جزءًا من الفلسفة، يرجع إلى تشكك رسل فى وجود معرفة أخلاقية أصلاً[2]. ولم يقتصر الأمر عند فلسفة الأخلاق، بل امتد الفصل إلى ما بين العلم والفلسفة أيضًا، فعندما سئل رسل فى مقابلة تليفزيونية على الهواء مباشرة بواسطة قناة «بى. بى. سى» كان رد فعله جريئًا، وصريحًا، فقال «العلم هو ما نعرفه والفلسفة هى ما لا نعرفه» بل أضاف إلى قوله بأن هذا التعريف بسيط جدا، حيث أنه لن يتفق اثنان من الفلاسفة على شيء»[3]. فالفلسفة هى ذلك النشاط الغريب، وأن إحدى غرائبها أنه ليس من السهولة والبساطة تعريفها، فيقصد بها فى الواقع تلك المفاهيم المختلفة لأشخاص مختلفة، فى أوقات وأماكن مختلفة[4].

=لم يتيسر الحصول على جواب عنه من مسائل الحياة، ذلك أن ما يتكون عنه مجموع من الحقائق فى موضوع ما، سرعان ما يستقل عن الفلسفة ويصبح علمًا قائمًا بذاته: فدراسة الكواكب، مما يدخل الآن فى علم الفلك، كانت كلها داخلة فى الفلسفة، ودراسة النفس كانت جزءًا من الفلسفة، ثم استقلت وكوّنت ما يسمى باسم علم النفس، فالمسائل الممكن تحصيل أجوبة نهائية عنها توضع فى العلوم، بينما تلك التى لم تحصل على جواب نهائى عنها حتى الآن تبقى لتكوّن البقية التى تسمى «فلسفة».

انظر- عبد الرحمن بدوى: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984م، ص519.

(1) Bertrand Russell: An Outline of Philosophy, op. cit, p.233.

(2) أحمد الصادق إبراهيم: الأخلاق عند برتراند رسل، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، طنطا، 2000م، ص27.

(3) برتراند رسل: مختارات من أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص187.

(4) D. D. Raphael: Moral Philosophy, Oxford University Press, New York, 1981, p.1.

ويرى رسل أن من بين فوائد الفلسفة أنها توسع من نظرة الإنسان الخيالية إلى العالم في مجال الافتراضات. غير أن هناك فائدة أخرى تماثلها في الأهمية، وهي أن الفلسفة ترينا أن هناك أشياء كنا نعتقد أننا نعرفها، غير أننا لا نعرفها[1]. كما أن السبب الرئيسي الذي دفع فيلسوفنا إلى الاهتمام بالفلسفة كان رغبة لإيجاد تبرير للاعتقاد في صدق الرياضيات[2].

ولمزيد من الدقة والوضوح يؤكد رسل حقيقة مهمة في فلسفة الأخلاق مفادها، أن الأخلاق تختلف عن العلوم في أن مادتها الأساسية مشاعر وانفعالات وليست مدركات حسية. وينبغي أن يفهم ذلك بمعناه الدقيق، أي أن المادة هي المشاعر والانفعالات نفسها، وليست واقعة لدينا هذه المشاعر والانفعالات. فالواقعة تعني أن لدينا حقيقة علمية مثل أية حقيقة علمية أخرى، ونحن نعرف وجودها بواسطة الإدراك الحسي بالطريقة المعتادة. ولكن الحكم الخلقي moral judgment لا يقرر حقيقة واقعة، بل يقرر أملاً في شيء ما أو خوفًا منه، أو رغبة في شيء ما أو عزوفًا عنه، أو حبًا لشيء ما، أو كراهية له، وإن كان ذلك كله كثيرًا ما يحدث في صورة مقنعة. وينبغي أن يوضع مثل هذا الحكم في صيغة التمني أو الأمر لا في صورة عرض لحقائق معينة. فالكتاب المقدس يقول: «حب جارك كما تحبَ نفسك»، بينما قد يقول رجل في العصر الحديث قض مضجعه كثرة الخلافات الدولية «وددت لو أن الناس كلهم أحبوا بعضهم بعضا»، وهذه العبارات عبارات أخلاقية بحتة، من الواضح أنه لا يمكن إثبات صحتها أو عدم صحتها عن طريق جمع الوقائع[3].

من هنا يتضح أن رسل اعترف مقدمًا بأن الأخلاق جزءٌ من الفلسفة، وإن حاول جاهدًا الفصل بينهما، فإن ذلك يرجع إلى كون برتراند رسل فيلسوفًا رياضيًا ومنطقيًا من الطراز الأول، وإن كانت له في الأخلاق كتابات ومقالات، فقد صرح في تصديره لكتاب «المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة» قائلاً «وكنت اعتزم أن أضم ما كتبته عن الأخلاق إلى كتابي عن «المعرفة الإنسانية». ولكني قررت ألا أفعل ذلك لأني لم أكن واثقًا من فكرة اعتبار الأخلاق «معرفة»[4].

(1) برتراند رسل: محاورات برتراند رسل، ترجمة: محمد عبد الله الشفقي، الدار القومية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1961م، ص7.

(2) ألفريد جولس آير: الفلسفة في القرن العشرين، ترجمة ودراسة: بهاء درويش، مراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الإسكندرية،2006م، ص94.

(3) برتراند رسل: المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص17.

(4) المصدر السابق: ص3.

وقد أشار رسل إلى هذا المعنى من قبل فى كتابه «موجز الفلسفة» عام 1927م(*)، تحت عنوان «الشكوك الفلسفية» Philosophic Doubts وذلك بقوله «إن هناك بعض المشكلات التقليدية فى الفلسفة يبدو أنها، فيما أرى، لا تقبل التناول العقلى الدقيق، وذلك لأنها تتجاوز قوانا المعرفية، ومن جانبى فإنى لن أتناول مثل هذه المشكلات»[1].

ولذلك فقد صرح برتراند رسل عن هذا الموقف فى «رده على نقاده» Reply to Criticisms بقوله «إن الفكرة الوحيدة التى تخص الأخلاق Ethics ويمكننى اعتبارها منتمية إلى الفلسفة هى الحجة التى تقول إن قضايا الأخلاق يجب التعبير عنها فى صورة إرشادية the optative mood وليس فى صورة إشارية the indicative فبقدر ما تكون الأخلاق هى موضوع اهتمامنا فلن يكون بإمكاننا أن نقدم بشأنها حججًا عقلية حاسمة وقاطعة»[2].

من هنا كانت المشكلة الخلقية ليست مجرد إشكال نظرى بحت أو مجرد بحث منطقى لغوى خالص، وإنما هى أولاً وبالذات مشكلة وجودية (واقعية) يواجهها المرء على مستوى الخبرة المعاشة[3]. كما أن اصطلاح «الفلسفة الخلقية» Moral Philosophy يشير إلى تلك الأفكار Ideas الأخلاقية المتعلقة ببعض المشكلات السياسية وفلسفة القانون Legal Philosophy[4].

والمسألة الخلقية فى حياة الفرد، هى نسيج من تناقضات حية، دائمة الانبعاث، بين مقتضيات الانضباط الضرورى لفعالية نضالنا، وبين حس المسؤولية الشخصية لكل منا فى وضع قوانين معركتنا نفسها وفى تنفيذها[5]. فالأخلاق عند فيلسوفنا- توجب أن يكون للفعل نهايات معينة، أى أن تكون الأفعال من الممكن الحكم عليها بأنها «خير» أو «شر» بعيدة عن توابعها[6].

(*) اعتمد المؤلف على الطبعة الثامنة لعام 1972م، والصادرة عن الولايات المتحدة الأمريكية.

(1) Bertrand Russell: An Outline of Philosophy, op. cit, p.1.

(2) Bertrand Russell: Reply to Criticism, in: the Philosophy of Bertrand Russell, edited by, p. A. Schilpp, The Library of Living Philosopher, Tudor Publishing company, New York, 1951, p.719.

(3) محمد مهران رشوان: تطور الفكر الأخلاقى فى الفلسفة الغربية، مرجع سابق، ص13.
وانظر أيضا- زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت، ص17.

(4) D. D. Raphael: Moral Philosophy, op. cit, p.9.

(5) روجيه جارودى: الأخلاق والدين، ترجمة: نزيه الحكيم، دار الوثبة، دمشق، د.ت، ص30.

(6) Bertrand Russell: Sceptical Essays, George Allen & Unwin LTD, London, 1960, p.93.

وإذا كنت بصدد الحديث عن النظرية الأخلاقية فإنها تختلف إلى حد ما عن المشكلة الخلقية، فإذا كانت الثانية يدور اهتمامها حول محور السلوك الإنسانى، الذى قد يقترب من وظيفة الاجتهاد الخلقى أى الوعظ الدينى، فإن النظرية الأخلاقية ليس من طبيعة عملها الوصول إلى قواعد فعلية للسلوك، مثل «ينبغى أن لا نسرق» فإن هذا هو مجال القواعد الخلقية[1].

ويؤكد برتراند رسل على حقيقة مهمة مفادها أن النظرية الأخلاقية هى التى تقدم لنا الأساس Basis الذى يمكننا أن نستدل منه هذه القواعد Rules الموجهة للسلوك، كما أن القواعد الخلقية تختلف باختلاف العمر والجنس والعقيدة اختلافاً لا يتبين مداه من لزم داره، ولم يسافر، أو لم يقرأ عن مختلف الأجناس البشرية Anthropologyم(*) بل حتى فى المجتمع الواحد قد ينشأ اختلاف وتباين فى الرأى حول قواعد السلوك[3].

وتأكيدًا لقول رسل فإن منظروا الفلسفة الأخلاقية قد كان لهم الشغف الأكبر فى تحديد

(1) Bertrand Russell: An Outline of Philosophy, op. cit, p.234.

(*) الأنثربولوجيا: هي علم دراسة الإنسان في جميع جوانبه الحياتية، وإنجازاته، وأفكاره، وتطوره، وهي العلم الوحيد الذي يستكشف البانوراما الكاملة لتجربة الإنسان وتطوره في حياته المعيشية من البدائية إلى الأشكال المعاصرة للثقافة والحياة الاجتماعية. كما أن علم الأنثروبولوجيا هو علم ذا منظور شمولي، يحاول فهم الجنس البشري من حيث ديناميكية العلاقات المتبادلة بين جميع جوانب الوجود الإنساني، وبين مختلف جوانب الثقافات المتعددة للمجتمعات مهتماً بالعلاقات المتبادلة فلا يمكن أن تفهم المجتمعات المعاصرة دون النظر في تاريخيهم التطوري، والذي يقوم بهذه المهمة العلمية هو علم الأنثروبولوجيا.
كما أن مفهوم الأنثروبولوجيا يعني بالضرورة ذلك العلم الذي ينشغل دوماً بدراسة الأجناس البشرية وطرق حياتهم اليومية ومعدلات انضباطهم الاجتماعي، داخل المجتمعات بسيطة التكوين والتعقيد، فيقضي علماء الأنثروبولوجيا معظم أوقاتهم في السفر إلي المجتمعات البدائية ذات المعيشة الغريبة عن المجتمعات الحديثة الأخرى، للتعرف علي مكامن صفاتهم المميزة عن غيرهم ومحاولة التعرف علي الأمراض الغريبة المنتشرة داخل بيئتهم ومحاولة توصيفها، ولا يتأتي ذلك إلا من خلال دراسة الأنثروبولوجيا نظرياً وميدانياً بعمق ودأب.
انظر:
- Claudia Wallis & Sonja Steptoe: About Anthropology; Definition and Distinctive Characteristics of Anthropology; Anthro Notes 27(2)Fall Smithsonian Institution, Washington, 2006, P. 6.
- James L. Peacock: The Anthropological Lens, Harsh Light, Soft Focus, Version 2, Cambridge University Press, USA, 2001, P. 8.

(2) Bertrand Russell: An Outline of Philosophy, op. cit, p.234.

المفاهيم والمصطلحات الأخلاقية الخاصة بهم، كما يحدث بالفعل فى تحديد المصطلحات الخاصة بالعلوم الأخرى، ولكن اختلف منظروا الفلسفة الأخلاقية فيما بينهم فى تحديد المعنى المقصود بتصورات الخير good والفضيلة virtue والقيمة value، مثلما حدث بالفعل بين الفلسفة الترنسندنتالية المتعالية Transcendental والفلسفة الطبيعية Naturalistic إلى أن جاءت نظرية الاهتمام Interest Theory لتوضح أن القيمة لا تتعلق بالأشياء، ولكن تنبع القيمة من رغباتنا الداخلية فى هذه الأشياء، فإننا لا نرغب فى الشيء لأنه قيم، ولكنه قيم لأننا نرغب فيه، وهذه العقيدة سادت بعض الوقت بين الناس، وكانت نتاجًا طبيعيًا لاختلاف القيم وتغيرها بين البشر[1].

من هنا كان لابد من التفرقة الواضحة حتى لا يكون هناك لبس وغموض فى المصطلحات الفلسفية، فالتباين فى فلسفة رسل يكون واضحًا جليًا، وكذلك عند السواد الأعظم من الحدسيين من فلاسفة الأخلاق فى القرن العشرين، حيث التفرقة بين كلمة «Ethics» والتى تعنى الأخلاق حيث تستخدم عندما يتعلق الأمر بالتحليلAnalysis، وبالتالى تكون صلتها بالتصورات الميتا أخلاقية Meta-Ethics التى تعد نموذج حقيقى للأخلاق التحليلية Analytic Ethics، وتنقسم الأخلاق التحليلية أو الميتا أخلاق إلى النظرية الحدسية Intuitionism التى وضع أسسها جورج إدوارد مور فى برنكيبيا القرن العشرين، ثم النظرية الإنفعالية أو العاطفية Emotivism المعبر عنها فى كتابات الوضعية المنطقية، أما كلمة «Moral Philosophy» وتعنى الفلسفة الخلقية حيث تتعلق بالأحكام المعيارية[2]، ومن ثم تكون صلتها بالسلوك[3].

فى حين رأى «ماكنزى» أن مصطلح النظرية الأخلاقية Ethics الذى يدرس علم السلوك the science of conduct أو علم المثل الأعلى فى السلوك الإنسانى، يتشابه فى المعنى مع مصطلح «الفلسفة الخلقية» Moral Philosophy فى كونهما يعنيان نفس الشيء، وهو دراسة السلوك الإنسانى[4].

(1) Sidney Zink: The Concepts of Ethics, Macmillan & Co. Ltd, New York, 1962, p.61.

(2) Routledge Encyclopedia of Philosophy: Version 1.0, Routledge, London and New York, 1998, «Analytic Ethics», p.303.

(3) محمد مدين: جورج ادوارد مور - بحث فى منطق التصورات الأخلاقية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999م، ص109.

(4) John S. Mackenzie: A Manual of Ethics, University Correspondence College Press, Fourth Edition, London, 1900, p.1.

وأضـاف «ماكنزى» أنه على الرغم من كون الأخلاق علمًا معياريًا Normative science إلا أنها ليســت علمًا تطبيقيًا Practical Science[1]. وعليها فالأخلاق يمكن أن توصف بأنها فن الســلوك Art of Conduct وهى ليســت فنًا بالفعل، لأنها تدرس شروط المثل الأعلى الإنسانى، فهى مثل المنطق عندما يطلق عليه فن التفكير Art of Thinking[2].

ولكن إذا كان رســل ممثلاً للفلســفة التحليلية، ورائدًا من رواد الفلسفة الواقعية الجديدة، يحاول أن يدافع عن القيم الأخلاقية ســواءً كانت منفصلة فى دراســتها عن الفلســفة أو كانت جــزءًا مــن الفكر الفلســفى، إلا أن هناك من فلاســفة الوضعية المنطقية الذيــن يقبعون تحت مسمى الفلسفة التحليلية بصفة خاصة، أو ما أطلق عليهم اسم أصحاب الوجود اللفظى، قاموا بدحض ورفض نظرية القيم بصفة عامة، سواءًا كانت هذه القيم أخلاقية أم جمالية.

لقــد زعمت الوضعيــة المنطقية أن أحــكام القيمة مســتحيلة، وذلك على أســاس التحليل التجريبي الجديد للمعنى والمعرفة[3]. كما أن العلوم المعيارية عند روادها لا تؤسس معرفة على الإطــلاق، وذلك بالمعنى الدقيــق للمعرفة، فإن تحليل اللغة، أعني «ماذا نعنى؟» يبين أن ما ندعوه بأحكام القيمة ليست أحكامًا، وإنما هي مجرد تعبيرات عن الشعور[4].

لقد ذهبت الوضعية المنطقية إلى القول بأنه ليس ثمة «قضايا أخلاقية» أصلاً، ولو أننا نظرنا إلى المعايير الأخلاقية على أنها «قضايا» لكان علينا أن نقول إننا هنا إزاء قضايا «زائفة» لا تعبر عن شيء يمكن التحقق منه تجريبيًا، إن هذه القضايا فى رأيهم ليســت إلا مجموعة من العبارات التــى تعــبر عن بعض الرغبات أو الأوامــر أو الوصايا. فالعبارة الأخلاقيــة التى تقول مثلاً «أن القتل جريمة» ليســت أكثر من وصية أو أمر يشــبه قولنا: «لا تقتلْ» والأوامر لا يمكن أن تعد صادقة أو كاذبة لأن الصدق والكذب لا يوصف بهما إلا القضايا الإخبارية فحسب[5].

(1) Ibid: p.10.

(2) Ibid: p.10.

(3) هشام شرابى: مشكلة القيم في فلسفة هارتمان ولويس، ترجمة وتقديم: محمد مدين، دار الثقافة العربية، القاهرة، 2001،ص54.

(4) المرجع السابق: ص55.

(5) إمام عبد الفتاح إمام: محاضرات فى فلسفة الأخلاق، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1974م، ص ص16،17.

بل أن العبارات الخلقية أو القيمية بوجه عام - عند «آير »Ayer - لا تصف شيئاً، بل ليست عبارات على الإطلاق. وهى إن تحرينا الدقة، عبارات وقضايا غير صحيحة، كما أن الدليل الخلقي ليس برهانًا صوريًا أوعلمياً على السواء[1]. بل ذهب الأستاذ الفريد آير إلى أن قضايا الأخلاق وعباراتها لا توصف بالصدق ولا بالكذب، لأنها أوامر فى صيغ مضللة، أو تعبيرات عن انفعالات نفسية، وهى كلام فارغ يشبه ثرثرة الطفل الصغير التى يعبر بها عن دوافعه ووجدانه[2]. ويضرب لنا «آير» مثالًا فيقول: إننى حين أقول لك «لقد أخطأت حين سرقت هذا المال» فإننى لا أقول شيئًا أكثر من قول: لقد «سرقت هذا المال» وحين أصف هذا الفعل بأنه خاطئ فإننى لا أضيف سوى استهجانى الذاتى لهذا الفعل[3].

في حين رأى « كارناب» أن كل كلمات القيمة هي كلمات ظاهرية، أو هي كلمات غير حقيقية، وأن كل القضايا المركبة من مثل هذه الكلمات هى من ثم قضايا ظاهرية، أو زائفة وغير حقيقية[4].

هكذا بدت القيم الأخلاقية عند الوضعية المنطقية وكأنها غير ذات قيمة، ليس لها أساس واقعى أو وجودى، وذلك على النقيض من فلسفة برتراند رسل فى النظرية الأخلاقية والمشكلة الخلقية التى تجعله من أعظم فلاسفة الأخلاق فى القرن العشرين، بما خطه من كتابات تتناول بالتحليل فلسفة الأخلاق والمشكلة الخلقية.

وخلاصة القول تبدو التفرقة عند الفيلسوف محور الدراسة واضحة جلية بين المشكلة الخلقية والنظرية الأخلاقية، فالأولى هو ما تتصرف الثقافةCulture بمقتضاه بالفعل، بينما الثانية هو ما تبتغيه الثقافة أن يكون، لكنه يصرح بأن نظرته الأخلاقية لا تحرص على هذه التفرقة[5]. ولكن على أية حال، الفلسفة الخلقية هى بالتأكيد ليست دراسة عملية بأى معنى من

(1) صلاح قنصوة: نظرية القيم فى الفكر المعاصر، مكتبة دار الكلمة، الطبعة الثالثة، القاهرة، 2002،ص22.
(2) توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق- نشأتها وتطورها، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة، القاهرة، 1985م، ص22.
(3) إمام عبد الفتاح إمام: محاضرات فى فلسفة الأخلاق، مرجع سابق، ص17.
(4) هشام شرابى: مشكلة القيم في فلسفة هارتمان ولويس، مرجع سابق، ص56.
(5) سناء خضر: الفلسفة الخلقية والعلم - نظرة نقدية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الإسكندرية، 2007م، ص48.

المعانى، فالفلسفة الخلقية لا يمكن أن تحاول إخبارنا ما الذى ينبغي أن يفعل، ونحن يجب أن نقرر ذلك بأنفسنا، وعلى الرغم من ذلك نجد على الجانب الآخر أن الفلسفة الخلقية ليست دراسة نظرية تمامًا not purely theoretical فمعظم الناس لا يدرسون موضوعاتها لكى يسخرون منها، فالتساؤل المطروح بها ينبع من مشكلة الحياة الواقعية[1]

ثانياً: الحاجة إلى القيم الأخلاقية

إذا كان جان كوكتو عبر عن ضرورة الفن ودوره فى العالم البرجوازى المعاصر بقوله «الشعر ضرورة .. وآهٍ لو أعرف لماذا»[2]. فإن ما يثبت على الفن يثبت بالضرورة على أهمية القيمة الأخلاقية فى الفكر المعاصر، باعتبار أن كل من الفن والأخلاق(*) قيم اكسيولوجية أصيلة، بينهما علاقات فلسفية مشتركة.

لقد فطن برتراند رسل إلى ضرورة وجود القيم الأخلاقية منذ كتب سيرته الذاتية معبرًا فيها عن تلك الدوافع التى قادته إلى البحث فى أسس الرياضة، ونظرية المعرفة، وكذلك فلسفة الأخلاق، حيث يقول «لقد تحكمت فى حياتى انفعالات ثلاثة، بسيطة بيد أنها متناهية فى القوة: الحنين للحب، والبحث عن المعرفة، والإشفاق الشديد على الذين يقاسون ويتعذبون، ولقد تقاذفتنى هذه الانفعالات، كالرياح العاتية فى طريق غير مستقيم فوق بحر عميق من العذاب، يصل إلى حافة اليأس ذاتها»[3]. وذلك كما جاء على لسان جون لويس عن رسل أنه يقول

---

(1) D. D. Raphael: Moral Philosophy, op. cit, p.9.

(2) ارنست فيشر: ضرورة الفن، ترجمة: أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م، ص7.

(*) يمكن القول أن الخير الأخلاقى هو أساس الخير الجمالي، والقيمة تسمو على المنطق أو الحق. والأخلاق يمكن أن يقال عنها أنها منطق السلوك Logic of Conduct أى أنها تضع فى اعتبارها حالات انسجام الفكر مع المعايير التى يتضمنها، فدراسة الخير وثيقة الصلة بدراسة الجمال، حيث كان اليونانيون لا يفرقون بين الجمال Beauty والخير Good ولم يجعلوا الخير الجمالى Aesthetical Good منفصلاً عن الخير الأخلاقى Ethical Good فالخير والجمال لم يكونا متمايزين، بل الاختلاف بينهما نجم عن تباين التطبيق فى مجال واحد.
انظر- رمضان الصباغ: الأحكام التقويمية فى الجمال والأخلاق، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الإسكندرية، 1998م، ص46.

(3) برتراند رسل: سيرتى الذاتية، ترجمة: عبد الله عبد الحافظ وآخرون، مراجعة: شوقى السكرى، دار المعارف، القاهرة، 1970م. ص7.

«لم أكتب ذلك بوصفي فيلسوفًا، بل كتبته بوصفي إنسانًا يعانى من الحالة السائدة فى العالم، ويتلمس سبيلاً ما لتحسينها، ويتلهف على التوجه بعبارات سهلة إلى أولئك الذين يكنون مشاعر مماثلة»[1].

من خلال النص السابق للفيلسوف محل الدراسة يتضح أن الحنين للحب، والبحث عن المعرفة، وكذلك الإحساس بأولئك الذين يقاسون ويتعذبون، عبارة عن أسس واضحة لفلسفة الأخلاق لابد وأن تكون متأصلة عند كل إنسان، فالأخلاق بهذه الكيفية ما هى إلا صورة من صور البحث عن الحقيقة، كما أنها تصدر عن باعث عقلي هو الرغبة فى المعرفة الأخلاقية، وذلك يرجع إلى كونها مرشدنا ودليلنا كى نفكر فى النظريات الأخلاقية، لأننا نحن الذين نصنع حالة نفسية متميزة، فهي تعطينا الرسم المنظورى للتفكير والأفعال، وتجعله أفضل انعكاسًا فى كل مكان، كما تعمل على تحسين التفكير[2].

ولكن.. كيف تنبعث الحاجة إلى الأخلاق؟ وما ضرورة وجودها فى المجتمع؟

لقد عبر برتراند رسل عن حاجة المجتمع إلى وجود القيم الأخلاقية بقوله «إن الآدميين ينفعلون وهم أيضًا عنيدون وبهم مسٌّ من جنون، وهم بجنونهم يتسببون لأنفسهم ولغيرهم فى كوارث قد تكون ماحقة. ولكن على الرغم من أن حياة الاندفاع خطرة، إلا أنه يجب المحافظة عليها إذا أريد للوجود الإنسانى ألا يفقد نكهته، فلابد لأي نظام أخلاقى يجعل الناس سعداء من إيجاد نقطة وسط بين قطبى الاندفاع والسيطرة، وعن طريق هذا الصراع الذى يجرى فى أعماق طبيعة الإنسان، تنبعث حاجته إلى الأخلاق»[3].

إن الإنسان لكى يحيا حياة طيبة داخل البيئة الاجتماعية المعقدة التى صنعها، لابد من أن يفرض عليه عامل خارجى، بالإضافة إلى الفضيلة الطبيعية التى تختلف أشد الاختلاف من شخص إلى آخر، وهذا العامل الخارجى هو عامل التوجيه والتحكم، الذى عبر عنه رسل بقطب

(1) جون لويس: رسل، ترجمة: عدنان كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1971م،، ص5.

(2) Harry J. Gensler: Ethics, London and New York, 1998. p.56.

(3) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص9.

السيطرة، الذى يقل ظهوره كلما نما الإنسان بفكره واكتمل منهجه الأخلاقى[1]. وعليها تبدو الطبيعة البشرية للإنسان محتوية فى داخلها على قطب السيطرة من جهة، ومن الجهة الأخرى يكون قطب الاندفاع، ومن خلال عملية التوفيق بين كل من الاندفاع والسيطرة تنبعث ضرورة فلسفة الأخلاق. لذلك كان الحمقى وحدهم ومضطربو الفكر هم الذين يطلقون لنزواتهم العنان، وكلما عرضت لهم رغبة بادروا بتحقيقها دون التفكير فى أثرها فى الناس، وفيما تخلقه من إحساس داخلى بالرضى أو الضيق أو الألم[2]، فالحياة الطيبة هى التى يلهمها الحب وتقودها الحكمة[3].

إن الإنسان كما رآه رسل أكثر تعقيدًا فى نزعاته ورغباته من أى حيوان آخر، وتنشأ الصعوبات التى يواجهها من خلال هذا التعقيد، فهو ليس اجتماعيًا تمامًا مثل النمل والنحل، ولا هو انفراديًا تماما مثل الأسود والنمور، بل هو حيوان شبه اجتماعى، حيث أن بعضًا من نزعاته ورغباته اجتماعى فيها، والبعض الآخر انفرادى. يبدو الجانب الاجتماعى فى طبيعة الإنسان البشرى فى اعتباره الحبس الانفرادى عقوبة بالغة الشدة، ويبدو الجانب الآخر فى حبه للاستقلال بأموره الخاصة وعدم استعداده للتحدث إلى الغرباء[4].

يرى رسل أن الناس الذين يعيشون فى مناطق مزدحمة مثل لندن ينمو لديهم جهاز دفاعى من السلوك الاجتماعى الذى يقصد به حمايتهم من المغالات فى الاتصالات الآدمية غير المرغوب فيها، فترى الناس الذين يجلسون بجاب بعضهم البعض فى سيارة عامة أو قطار من قطارات الضواحى لا يتحدثون فى العادة إلى بعضهم، ولكن إذا وقع شيء مثير مثل غارة جوية أو حتى ضباب كثيف أكثر من المألوف، يحس الغرباء فورًا أنهم أصدقاء، ويبدأون فى التحدث إلى بعضهم دون تحفظ. هذا النوع من السلوك يبين لنا مدى التذبذب بين الجانب الشخصى

(1) جون كارل فلوجل: الإنسان والأخلاق والمجتمع، ترجمة: عثمان نويه، دار الفكر العربى، القاهرة، د.ت، ص24.

(2) برتراند رسل: عالمنا المجنون، ترجمة: نظمى لوقا، دار المعرفة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1959م، ص96.

(3) برتراند رسل: مختارات من أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص123.

(4) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص10.

والجانب الاجتماعى فى الطبيعة البشرية، ولأننا لسنا اجتماعيين تمامًا فنحن فى حاجة ماسة إلى وجود الأخلاق التى توحى لنا بالأهداف، وكذلك إلى وجود قواعد أخلاقية تفرض علينا قواعد التصرفات. أما النمل والنحل فليس فى حاجة إلى شيء من هذا، فهو يتصرف دائمًا بما تمليه عليه مصلحة الجماعة[1].

ولكن لو استطاع الإنسان أن يخضع نفسه للصالح العام إلى الحد الذى تفعله النملة، فلن يشعر باكتفاء كامل، بل سيدرك بأن جانبًا من طبيعته يذوى، فلذلك لا يمكن القول بأن الجانب الانفرادى فى طبيعة الإنسان أقل قيمة من الجانب الاجتماعى. ويظهر الجانبان بوضوح فى الكتابات الدينية متصلين فى وصيتي الإنجيل: أن نحب الله وأن نحب جيراننا، أما بالنسبة لأولئك الذين كفوا عن الإيمان بإله الأديان التقليدية فقد يكون من الضرورى تعديل العبارات وفق أفكارهم، ولكن ليس هناك أية ضرورة لإدخال أى تغيير على القيم الأخلاقية، فالمتصوف والشاعر والفنان والمكتشف العلمى فى أعماقهم انفراديون، وقد يكون ما يفعلونه مفيدًا لغيرهم، ولكنهم فى اللحظات التى يكونون فيها أكثر ما يكونون حياة وأتم تحقيقًا لما يحسون أنه رسالتهم، فإنهم لا يفكرون فى بقية الجنس البشرى بل يتابعون خيالاً[2].

وهنا لابد عند رسل أن نعترف بوجود عنصرين متميزين فى التفوق البشرى، أحدهما اجتماعى والآخر انفرادى، فأي نظام أخلاقى يدخل فيه أحدهما دون الآخر يكون نظامًا أخلاقيًا غير مرضٍ وغير كامل[3]. وذلك على النقيض مما قاله الفيلسوف الأمريكى «هنرى ديفيد ثورو» Henry David Thoreau (1817 - 1862) صاحب فكرة الفردية المتطرفة فى تاريخ الفلسفة الغربية، فقد رأى «ثورو» أن الفرد من حقه باعتباره فردًا أن ينسلخ بمفرده عن سائر الجماعة إذا أراد ذلك، فلا يخضع للدولة إذا لم تصادف هواه، فالفرد على هذه الأرض مملكة وحده، هو بذاته وبمفرده سلطة لها سيادتها، فتراه يقول: «إن القول بأن الفرد خلق

(1) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(2) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(3) المصدر السابق: ص11.

ليعيـش فى مجتمع أكذوبة كبرى، فالعكس هو الأدنى إلى الصواب، فقد خلق المجتمع من أجل الفرد»[1].

إن تأكيد رسـل على أهمية المجتمع فى تحديد السـلوك الإنسـانى، يجعل الإنسـان فى حاجه ماسة إلى بنى جنسه، فطبقًا لما قاله رسل بأن الإنسان فى أخلاقه عبارة عن حيوان شبه اجتماعى، فـلا هـو فردية متطرفة كما عبر عنها «هنرى ديفيد ثورو»، ولا هو كائن عديم القيمة وسـط الأحـداث الصاخبة داخـل مجتمعه، ولكن العلاقة قائمة بين الفرد والمجتمع. فالإنسـان حيوان يعيش باسـتمرار فى صحبة غيره من بنى الإنسان، ويكاد يعتمد فى سنواته الأولى على الآخرين اعتمادًا كليًا، لذلك كانت لديه ميول طبيعية كثيرة تؤهله للحياة الاجتماعية المتناسقة ولحماية الصغير والضعيف[2].

لقـد أكد رسـل على أن الحاجة إلى الأخلاق فى الشـئون البشرية لا تنشـأ فى الإنسـان عن اجتماعيته الكاملة أو عن فشله فى أن يرتفع بنفسه إلى أفاق رؤئ داخلية فحسب، بل أنها تنشأ أيضًـا عن فرق آخر بينه وبين الحيوانات الأخرى. فالتصرفات البشرية لا تنبثق كلها من نزعة مبـاشرة، بل أنها قابلة لأن تخضع للغرض الواعى، وأن توجه بواسـطته، وتملك بعض الحيوانات العليا هذه القدرة إلى حد ضئيل. فالكلب يسمح لصاحبه أن يؤلمه عند إخراج شوكة من رجله، وقـد فعلت قرود «كوهلر» بعض الأشـياء غير الغريزية فى محاولتها الوصـول إلى الموز، ومع ذلـك فإنه مما ينطبق حتى على الحيوانات العليـا أن نقول أن معظم تصرفاتها من وحى الاندفاع المباشر، ولا ينطبق هذا على الإنسان المتمدين[3].

كـما أكد فيلسـوفنا- فى كتابه «نحـو عـالم أفضل»[*] الميل الغريزى هو الشـعور الذى

(1) زكى نجيب محمود: حياة الفكر فى العالم الجديد، دار الشروق، الطبعة الثانية، بيروت، 1982، ص ص 65:68.

(2) جون كارل فلوجل: الإنسان والأخلاق والمجتمع، مرجع سابق، ص24.

(3) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص11.

(*) يشير المؤلف أن العنوان الإنجليزى لهذا الكتاب يحمل اسم Principles of Social Reconstruction وقد صدر عن مؤسسة «جورج ألان» بالولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة السادسة 1920م. وقد وجد المؤلف أن لهذا الكتاب ترجمتان عربيتان، الأولى صادرة عن المركز القومى للترجمة التابع للمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، وتحت عنوان «نحـو عالم أفضل»، وقد قام بالترجمة كل من: دريني خشبة، وعبدالكريم أحمد، أما الترجمة الثانية=

يجعلنا نجد سرورًا وبهجة فى صحبة شـخص آخر، ونرغب فى التحدث، والعمل واللعب معه. وغايـة ما يصل إليه هذا الميل هو الحب بين الرجل والمرأة، وهو فى أضعف صوره ذو أهمية من الناحية السياسـية. ووجود شـخص ممن يثيرون فى النفس نفورًا غريزيًا يجعل الإنسـان أكثر إقبالاً من أى شـخص آخر من الموجودين، فإن المسـيحى الذى لا يحب اليهود يقبل أى مسيحى آخر فى حضرة اليهودى، وفى الصين أو فى غابات أفريقيا يبتهج الرجل الأبيض لوجود أى رجل أبيـض آخر ويرحب به. فإن النفور الغريزى المشـترك هو أكثر المصادر التى ينشـأ عنها ميل غريزى[1].

يرى رسل أن هناك اعتقادًا شائعًا بأن كل ما هو غريزى فينا لا يمكن تغييره، ويجب أن يقبل على علاته، وأن يسـتغل أحسـن ما فيه بقدر الإمكان، وهذا غير الواقع تمامًا. فلا شك أن هنـاك مزاجًا أصيلاً فى كل منا يختلف باختلاف الأشـخاص، وهو يتفاعل مع الظروف الخارجية مكونًا شـخصية الإنسـان، ولكن حتـى الجزء الغريزى فينا قابل للتشـكيل، فقد تغـيره الاعتقـادات، أو الظروف المادية، وقد تغـيره الظروف الاجتماعيـة والنظم القائمة، فغالبًـا ما يكون للهولندى نفس المزاج الأصيل الـذى للألمانى، ولكن غرائزهما تختلف تمامًا بعد أن يبلغا مبلغ الرجال بسبب الهولندى ليس لديه الروح العسكرى والشعور بالكبرياء لدولة كبرى مثل الألمانى، وكذلك من الواضح أن الغرائز لدى العزاب تختلف اختلافًا عميقًا عنها لدى المتزوجين.

يؤكد رسل أن كل الغرائز تقريبًا قابلة للتشكيل فى قوالب مختلفة بحسب المتنفس الذى يتهيـأ لكل منها، ونفـس الغريزة التى تـؤدى إلى الخلق الفنى والعقلى، قد تـؤدى إذا اختلفت

= لهذا الكتاب فهى الترجمة البيروتية الصادرة عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، لعام 1987م، وقام بترجمتها الدكتور: إبراهيم يوسف النجار، تحت عنوان «أسس لإعادة البناء الاجتماعى». ولكن عندما قام الباحث بمراجعة الترجمتان مع النص الإنجليزى للكتاب، وجد أن الترجمة الصادرة عن المركز القومى للترجمة هى الأفضل، وذلك من حيث الصياغة اللغوية، والصياغة الفلسفية للنصوص الواردة، وأيضًا الدقة فى التعبير، وإن كانت الترجمة البيروتية تحمل الترجمة الدقيقة للعنوان... المؤلف.

(1) برتراند رسل: نحو عالم أفضل، ترجمة ومراجعة: دريني خشبة، عبدالكريم أحمد، العدد 1155، المركز القومى للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2007م، ص32.

الظـروف إلى حب القتال، فلا معنى لأن نعتبر تصرفًا معينًـا أو اعتقادًا معينًا غير قابل للتغيير لمجـرد أن الدافـع إليه غريزة مـن الغرائز، وينطبق هـذا الميل الغريـزى والنفور الغريزى لـدى الناس، كما ينطبق على جميع الغرائز الأخرى، لذلك كان الاعتقاد الشـائع بأن الطبيعة البشريـة لا تقبل التغيـير هو اعتقاد باطل، فكلنا نعلم أن طباع معارفنا وطباعنا تتأثر إلى حد كبير بتغير الظروف[1].

إن النظم الأخلاقية والقواعد الأخلاقية فى فلسفة برتراند رسل تكتسب قوة تأثيرها بسبب القدرة على التصرف بقصد تحقيق هدف معين، حيث أنهما يميزان بين الأغراض السيئة والحسنة مـن ناحية، ومن ناحية أخـرى يميزان بين الوسـائل المشروعة وغير المشروعـة فى تحقيق هذه الأغراض، بيد أنها من السـهل عندما نتناول الإنسـان المتدين أن نوجه اهتمامنا أكثر مما ينبغى إلى الغرض الواعى، وأن نغالى فى التقليل من أهمية النزعة التلقائية. ورجال الأخلاق يميلون إلى تجاهل مطالب الطبيعة البشرية، فإذا فعلوا ذلك فإنه من المحتمل أن تتجاهل الطبيعة البشرية مطالب رجال الأخلاق[2].

إنه على الرغم من كون الأخلاق فردية عندما تتناول الواجب تجاه الأخرين، فإنها تواجه أصعـب معضلاتها عندمـا تتناول الجماعـات الاجتماعية. ولكن على الرغم مـن ذلك لا ينبغى الانتصار للفرد على حساب المجتمع، أو للمجتمع على حساب الفرد، لأن أخلاق الفرد والمجتمع لا يمكـن الفصل بينهما بـأى حال من الأحوال، فلا قيام للحياة الخلقية بدون هذا الاسـتقطاب الحاد بين الأنانية والغيرية أو بين «تحقيق الذات» و«التضحية بالذات» فليس فى وسع الموجود الأخلاقى أن يحيا دون هذا الصراع الروحى المستمر بين قطب «الأنا» وقطب «الغير» بل دون هذا التوتر النفسى بين الرغبة فى تحقيق الذات، والنزوع نحو التضحية بالذات. وربما كان هذا التوتر نفسه هو التربة الوحيدة التى تنمو فيها الحياة الخلقية، فإنه لمن الواضح أن شخصية كل فرد منا لا تتكون إلا عبر تلك الخبرات الروحية التى تلتقى فيها «الأنا» بـ«الأنت» وتتصارع فيها «الأنا» مع «الغير»[3]. وهكذا نخلص إلى القول بأنه لا قيام للحياة الخلقية بدون مشـاعر

(1) المصدر السابق: ص ص 35،36.
(2) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص11.
(3) أحمد الصادق إبراهيم: الأخلاق عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص48.

«احترام الذات» و«احتقار الذات» التى تتولد لدى الفرد من خلال تعامله مع الآخرين، واحتكاكه بهم، وتعاطفه معهم[1].

ثالثًا: السلطة والأخلاق

إلى أى حد انتقلت الأفكار الدينية إلى فلسفة الأخلاق؟ وما علاقة الدين كسلطة إلهية تفوق الطبيعة البشرية بماهية الأخلاق؟ وما الكيفية التى يؤثر بها الضمير كأساس داخلى للفكر الفلسفى الأخلاقى؟ وما دور السلطة فى فلسفة الأخلاق؟

ليس من الغريب أن يتناول الباحث فى دراسته موضوع السلطة ضمن عناصر النظرية الأخلاقية، وذلك لأن السياسة والأخلاق متصلتان دون أن تندمجان، فلم يكن أفلاطون يرى بين الواحدة والأخرى سوى فرق درجات السلم. فالعدالة نفسها ينبغى أن تسود الفرد والمدنية، والخير نفسه ينيرها، أعنى بذلك- إخضاع السياسة للأخلاق[2].

من هنا بدأ رسل موضوعه بالبحث فيما تعنيه كلمة «السلطة» authority، فيرى أن هناك ما يسمى بالسلطة البشرية، وكذلك السلطة الدينية، وهى تكون للمتمسكين بالتعاليم الدينية، وأيضًا توجد سلطة الحقيقة، وسلطة الضمير. وفى النظم الأخلاقية التقليدية تتحد جميع السلطات معًا، فتكون السلطة على هيئة «لماذا يجب علي أن أفعل هذا أو ذاك» فنقول «لأنها مشيئة الله، وأن هذا ما يحبذه المجتمع، أو لأن ذلك يكون بمثابة الحقيقة الأبدية التى يجب عليك أن تفعلها، أو قد تكون الإجابة أن ضميرك لو استمعت إليه لوجدته يقول لك: «ينبغى عليك أن تفعل كذا أو لا تفعل كذا»[3].

يرى رسل أن موضوع مناقشة السلطة فى الأخلاق يتبلور فى سؤالين:

(أ) لماذا ينبغى علي أن أفعل ما تقول أنت أنى أفعله؟

(1) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(2) أندريه كونت- سبونفيل: الفلسفة، ترجمة: على أبو ملحم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 2008م، ص ص99-98.

(3) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص105.

(ب) عندما يكون هناك خلاف فى موضوع أخلاقى، كيف نفصل فيه؟

تكمن الإجابات عن التساؤلات المطروحة فى مستويين أحدهما يفوق الطبيعة البشرية، والآخر يكمن فى الطبيعة البشرية وهما كالتالى:

المستوى الأول: السلطة فى الدين:

يناقش رسل السؤال الأول وهو «لماذا ينبغى علي أن أفعل ما تقول أنت أنه يجب علي أن أفعله» فتكون الإجابة بأنها إرادة الله تعالى. وقد يرد الشخص الذى لا يؤمن بهذه الإجابة البسيطة على ذلك بإحدى طريقين، فقد يقول لك: «كيف تعرف أن هذه هى إرادة الله» أو قد يقول: «لماذا يجب علي أن أطيع إرادة الله» والإجابة على السؤال الثانى من هذين السؤالين بسيطة «أن الله قادر على كل شيء، وإذا لم تطع مشيئته فسينزل بك العقاب، بينما إذا أطعته فقد يرسلك إلى الجنة»[1].

إن الإجابة السابقة فى رأى رسل «تفترض اعترافًا بمبدأ اللذة الأنانية Egoistic Hedonism وهو المبدأ القائل بأن كل إنسان عليه أن يحاول الحصول على أكبر قدر من المتعة لنفسه، وقد كانت هذه دائمًا هى تعاليم المسيحية الأصيلة التقليدية»[2]. ويرفض رسل ذلك المبدأ حيث يراه لا يختلف عن مذهب الأخلاقيين الدنيويين فى أية ناحية أخلاقية، ويقتصر الفرق بين المذهبين على موضوع يتعلق بالحقيقة الواقعة، وهى هل إذا فعلت هذا أثاب بالسعادة الأبدية فى الجنة، وإذا فعلت ذاك أعاقب بالعذاب الأبدي فى الجحيم؟ وليس هذا سؤال أخلاقى ومن ثم لم أتعرض له بالمناقشة.

ويعرض رسل لخلافات قد تحدث لدى الدنيويين (كما يطلق عليهم رسل) حول فكرة «مشيئة الله»، فعلى سبيل المثال، يرى البروتستانت أنه مما يتعارض مع المشيئة الإلهية أن يعمل الإنسان يوم الأحد، أما اليهود فيرون يوم السبت هو الذى يعترض الله على العمل فيه، واستمر الخلاف فى هذا الموضوع تسعة عشر قرنا، ولا يعرف رسل فى هذه الحالة أية وسيلة لإنهاء الخلاف، كما يؤكد اليهود والمسلمون أن الله حرم لحم الخنزير، ولكن الهندوس يقولون أن لحم

(1) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص106.
(2) المصدر السابق: نفس الصفحة.

البقر هو المحرم، وقد تصاعد الخلاف فى هذه المسائل لدرجة أن تسببت فى مذابح كثيرة أدت إلى موت مئات الألوف فى السنين الأخيرة، وعليها لا يمكن القول بأن المشيئة الإلهية(*) أو سلطة الدين يمكن أن تهيئ أساسًا لنظام أخلاقى موضوعي[2].

ويؤكد رسل أنه لو كان هناك باحث غير متأثر بالانفعالات الشديدة ويرغب فى التأكد مما تقضى به المشيئة الإلهية، فلن يقتصر على معرفة آراء جيرانه المباشرين، بل عليه أن يرسل قائمة ببعض الأسئلة إلى الزعماء الدينيين فى أنحاء العالم، مادام هؤلاء يدعون أن لديهم المعرفة اللازمة، ولكن أخشى أنه سيجد محاولة اكتشاف نقطة واحدة يتفق فيها الجميع أمرًا فى منتهى الصعوبة، وسيضطر فى النهاية إلى الاعتراف بأن الموضوعية فى الأخلاق شيء لا يمكن الوصول إليه، على الأقل من خلال هذا الطريق[3]، وذلك لأن الدين عند رسل يقوم على الخوف، وبالتالى

(*) لابد من معرفة موقف برتراند رسل من الدين، حيث أن معرفة الموقف الذى تبناه رسل تجاه الدين يجعلنا نعرف الكيفية التى رفض عليها رسل السلطة الدينية كمصدر من مصادر التشريع الأخلاقى، فقد عبر «ول ديورانت» عن الموقف الذى اتخذه رسل تجاه الدين، وهو الموقف المسمى بـ«اللا أدرية والشك» حيث يقول «لقد أدت بدايات رسل فى الرياضيات إلى مصير محتوم من «اللا أدرية والشك» فقد وجد فى المسيحية كثيرًا من الأشياء التى لا تتفق مع ما فى الرياضيات من قواعد ونظريات ثابتة فتخلى عنها باستثناء قانونها الأخلاقى، ولم يستطع رسل أن يجد إلهاً فى مثل هذا العالم المتناقض الذى لا يمكن أن يكون إلا من صنع شيطان ساخر هازل.»

انظر - ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوى، ترجمة / فتح الله محمد المشعشع، منشورات مكتبة المعارف، الطبعة السادسة، بيروت، 1988م، ص586.

وقد أكد رسل ذلك القول بصريح العبارة فى سيرته الذاتية حيث يقول «فلما بلغت الثامنة عشرة من عمري، وقبل التحاقي بجامعة كمبردج وقعت عيني على كتاب لـ»جون ستيوارت مل» هو(سيرته الذاتية) قرأته فلفتت نظرى جملة فيه مؤداها أن والده علمه أن هذا السؤال: من خلقك؟ لا يمكن العثور له على جواب شاف، وذلك لأنه يوحى مباشرة بسؤال آخر: ومن الذى خلق الله؟ وصرفنى هذا عن حكاية «العلة الأولى»، وأصبحت بعدها ملحدًا، ولكنى فى أثناء تلك الفترة الطويلة من الشكوك الدينية كان ينتابنى الشعور بالشقاء والتعاسة، لأني كنت أتخلى تدريجيًا عن عقيدتي، غير أن هذه العملية ما كادت تتم وتصل إلى قرار حتى وجدت لفرط دهشتى أننى مسرور جدًا لأننى تخلصت من الموضوع برمته.»

انظر - برتراند رسل: سيرتي الذاتية، مصدر سابق، ص ص52،53.

(2) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص106.

(3) المصدر السابق: ص108.

فهو شر، وهو كما يقول رسل «عدو للطيبة والذوق فى العالم الحديث» وهو يوجد عند الأقوام التى لم تبلغ بعد نضجها[1].

ولقد أكد عدد من الفلاسفة الخطأ فى الظن بأنه يمكن إقامة الأخلاقية على الوجود الإلهي، وكان رسل خير من عبر عنه بإيجاز ووضوح حيث يقول: «كان اللاهوتيون يعلمون دائماً أن أفعال الله كلها خير، وليس هذا مجرد تحصيل حاصل لكن يلزم أن الخيرية مستقلة منطقيًا عن أفعال الله»[2]. وهنا تبتعد الأخلاق عن الدين فلا تجد فيه منبعًا لها.

والمقصود هنا هو أنه لا يمكن تبرير المعايير الأخلاقية بمجرد اللجوء إلى سلطة عليا سواء كانت إنسانية أو إلهية، بل يجب أن توجد المقدمة الإضافية وهي أن الشخص الذى تطيع أوامره هو خير، أو أن ما يأمر به صواب، وليس هذا مجرد تحصيل حاصل كالقول هو من هو أو أن ما يأمر به هى أوامره[3]. وعليها أكد رسل على أنه كواحد من الناس الذين لا تنبعث لديهم السلطة الأخلاقية من مصدر فوق الطبيعة. أى الميتافيزيقا (الله) فكان رسل يرد الأخلاق إلى الفيزيقا الحية الملموسة أى الطبيعة الحياتية.

المستوى الثانى: سلطة الضمير:

يعد الضمير Conscience الأخلاقى استعدادًا نفسيًا لإدراك الخير والشر، أو الحسن والقبيح من الأفعال، فهو خاصية العقل فى إصدار أحكام معيارية وتلقائية ومباشرة على القيمة الأخلاقية لبعض الأفعال الفردية المعينة، وهو مركب من الخبرات الانفعالية القائمة فى فهم الإنسان للمسئولية الأخلاقية بالنسبة لسلوكه داخل المجتمع، وتقديره الخاص للفعل والسلوك. كما أن الضمير ليس خاصية وراثية فى الإنسان، بل هو يتحدد بموقف الإنسان فى المجتمع وظروف حياته وتربيته وغيرها، وهو وثيق الصلة بالواجب، كما أن يمثل قوة تدفع الإنسان لرفع مستواه الأخلاقى[4].

(1) إ.م. بوشنسكى: الفلسفة المعاصرة فى أوروبا، ترجمة/ عزت قرنى، العدد 165، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت،، 1992م، ص91.

(2) ألفريد جولس آير: المسائل الرئيسية فى الفلسفة، ترجمة / محمود فهمى زيدان، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1988م، ص262.

(3) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(4) رمضان الصباغ: الأحكام التقويمية فى الجمال والأخلاق، مرجع سابق، ص211.

وحين يتعلق الضمير بالأفعال المقبلة، فإنه يتخذ شكل صوت يأمر أو ينهى، و إذا تعلق بالأفعال الماضية، فإنه يترجم عن نفسه بمشاعر السرور(الرضا) أو الألم (التأنيب). وهذا الضمير يوصف تبعًا للأحوال المختلفة بوصف: الواضح، الغامض، المريب أو المخطئ[1].

أما رسل فيرى أولاً أن الضمير يرجع أولاً، إلى التطور الذى مر به الإنسان، والذى كان لابد بطبيعة الحال أن يكوّن فى الإنسان غرائز المحافظة على النفس، و يرجع ثانيًا، إلى المدنية والتربية التى تدخل تهذيبات كبيرة على فكرة المحافظة على النفس[2].

أما إذا كنا بصدد الحديث عن سلطة الضمير فإن رسل ربط ربطًا وثيقًا بين «المشيئة الإلهية» من جهة و«الضمير» من جهة أخرى، ذلك أن إحدى المشكلات التى ينبغى على أية نظرية أخلاقية أن تتناولها بالبحث والدراسة هى العلاقة بين الطاعة للمشيئة الإلهية من جهة والخضوع لصوت الضمير من جهة أخرى، ورسم صورة لكل مجال من هذين المجالين، و يبن رسل أهمية هذين المجالين فى الفكر الأخلاقى حين يصرح بأن كل واحد من هذين المصدرين للمشاعر الأخلاقية مهما كانت بداياته الفجة يمكن تنميته إلى صور يمكنها التأثير على المتحضرين إلى حد كبير، ولو أننا تجاهلنا أيا من هذين المصدرين، فإن الأخلاق الناتجة عن هذا التجاهل سوف تأتى متحيزة وغير وافية[3].

إن الخلافات حول ما يقضى به الضمير فى فكر رسل هى نفس الخلافات حول مشيئة الله، فليس هناك منهج معترف به لحل هذه الخلافات كما فى مجال العلم، والمنهج الوحيد المعترف به هو «الحكم» بمعناه الواسع. فهناك الحكم الذى يقضى به القانون، وهناك ما يحبذه الجيران أو ما يستهجنونه، و يولد ذلك قدرًا معينًا من الاتفاق بين أعضاء المجتمع ذاته أو الدولة نفسها، ولكنه لا ينتج اتفاقًا يتعدى الحدود أو يمتد إلى ثقافات مختلفة، ومن ثم فليس للضمير ميزة على «مشيئة الله» كأساس للأخلاق[4]. وذلك لكونه أى (الضمير) متوقف فى الجانب الأكبر منه على التربية، (فبما أن العامة من الايرلنديين -على سبيل المثال- لا يعدون الكذب نوعًا من

(1) عبد الرحمن بدوى: الأخلاق النظرية، مرجع سابق، ص51.
(2) برتراند رسل: فلسفتى كيف تطورت، مصدر سابق، ص30.
(3) أحمد الصادق إبراهيم: الأخلاق عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص117.
(4) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص108.

الخطأ) فهذه الحقيقة وحدها تبدو لى كافية تمامًا لنفى ما للضمير من طبيعة إلهية، وما دام الضمير مركب من التطور والتربية، فمن الواضح أن اتباعنا الضمير من دون العقل ضرب من العبث[1].

وبعد مناقشة رسل لموضوع السلطة فى الأخلاق سواءً كانت سلطًة دينيًة أو سلطة الضمير أو غير ذلك من عادات وتقاليد موروثة، يرى أن موضوع الأخلاق كله ناتج عن ضغط المجتمع على الفرد، فالإنسان كمخلوق اجتماعى ليس كاملاً، ولا يشعر دائمًا شعورًا غريزيًا بالرغبات التى تفيد قطيعه، ولما كان القطيع يريد أن تكون تصرفات الفرد متفقة مع مصالحه كمجموعة، فقد ابتكر عدة طرق تؤدى إلى جعل مصلحة الفرد متناسقة مع مصلحة القطيع، وأحد هذه الطرق هى: الحكومة، وثانيها: القانون والعرف، وثالثها: النظام الأخلاقى[2].

ويعد النظام الأخلاقى عند رسل قوة فعالة من خلال طريقين: الطريق الأول من خلال ثناء الجيران والسلطات ولومهم، والطريق الثانى من خلال الثناء على الذات أو لومها وهى التى تسمى بالضمير، وعن طريق هذه القوى فإن مصلحة الجماعة تؤثر فى الفرد، فمن مصلحة الجماعة ألا يُسْرق إنسان، بيد أنه قد يكون من مصلحتى أن أسرق ولا يسرق غيرى، وذلك إذا صرفنا النظر عن القوى التى أشرنا إليها سابقًا، ولا يستطيع اتخاذ هذا الموقف إلا طاغية، والطغاة لا يحبذهم أحد حين يفقدون قوتهم، من هنا كان الهدف من النظام الأخلاقى هو أن يجعل الفرد مستجيبًا لصالح المجتمع، وأن يؤدى إلى تطابق بين صالح الفرد وقطيعه، ذلك التطابق الذى لا يمكن أن يوجد إلا من خلال هذا الطريق[3].

(1) برتراند رسل: فلسفتى كيف تطورت، مصدر سابق، ص31.
(2) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق ص108.
(3) المصدر السابق: ص110.

تعقيب عام

فى ثنايا الصفحات السابقة، قمت بعرضٍ عام لطبيعة القيمة الأخلاقية عند الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل، وقد تبلورت فيها فلسفة رسل من خلال النزعة المتبعة فى جُلّ فلسفته، ألا وهى النزعة الواقعية التى تحلت بها فلسفة رسل بوجه عام، وهذه النزعة جعلت فلسفة رسل الأخلاقية مصطبغة بالصبغة الاجتماعية، تلك الصبغة التى جعلت أفكار رسل العامة فى الأخلاق قريبة من فكر الإنسان العادى، فهى فلسفة للقارئ العام والمتخصص على السواء.

إنه على الرغم من وضوح أفكار رسل العامة فى الأخلاق، إلا أنها جاءت مشوبة بأفكاره فى التربية والسياسة، فكان من الصعوبة أن نتعرف على الأفكار الأخلاقية دون الرجوع إلى فلسفته السياسية، وكذلك الاتجاهات العامة للتربية والتعليم، فظهر رسل فى ثنايا الصفحات السابقة كأنه فيلسوفًا اجتماعيًا بصفة خاصة، بينما ظهرت اتجاهاته الأخلاقية فى الدور الثانى من اهتماماته الاجتماعية، وهى قريبة إلى حد كبير إلى الأذهان.

ومن الغريب فى فلسفة رسل الأخلاقية أن يتجه بأفكاره السياسية لكى يصوغها تحت اسم الأخلاق، منها على سبيل المثال موضوع السلطة فى الأخلاق، حيث قسم رسل السلطة إلى سلطة إلهية تأتى عن طريق الخوف من الله طمعًا فى دخول الجنة، والبعد عن النار، ولكن بعد تعرض رسل لتحليل أفكاره فى السلطة الدينية قام باستبعادها كركيزة فى فلسفة الأخلاق، بينما عند تحليله لسلطة الضمير الأخلاقى جاءت أفكاره متسقة إلى حد ما على الرغم من أن فلسفته فى الضمير لا تساوى شيئًا إذا ما قورنت بأفكار بتللر Buttler عن الضمير فى فلسفة الأخلاق، من هنا كان يمكن القول على فلسفة رسل أنها فلسفًة سياسيًّة أخلاقيًّة من الطراز الثانى، بينما هى فلسفة تحليلية منطقية، أو رياضية علمية من الطراز الأول، ولكن رسل قام بالتفرقة بين اتجاهه فى الأخلاق واتجاهه فى المنطق.